الحياة مع المسيح المنبعث حسب الروحانيات المشرقية

✍ الأب روبيرت بيولاي الكرملي

لقد كتب الأب ميشيل حايك وهو يتأمل في الطريقة التي تعيش بها الكنيسة الآرامية السر الفصحي ، أي ظلمات الجمعة العظيمة وسهر يوم السبت وانفجار النور في أحد القيامة : « تحب الكنيسة الآرامية الإنحناء على قبر الرب والإنغماس معه في غبشة السبت المقدس ... إنها مكرسة للسهر الغَسَقي ، مع الرجاء بمجدٍ لا يزال موعوداً ومع ذكر نُدبٍ لم تلتئم بعد »(١) .

إن هذا القول يصلح للروحانيات المشرقية عامة وخاصة في ممارستها للزهد المرتبطة بالذكريات المؤلمة للخطايا التي محاها المسيح بموته ، ذلك الزهد الذي يُعتبَر نوعاً من الإقامة في القبر قبل القيامة . لكن هناك بُعداً آخر ، خاصاً بالروحانيات المشرقية ، يرتكز على الاشتراك من هذه الحياة في نور القيامة ، حيث يختبُر المؤمن عربونَ المجد الآتي وحتى يتكلم عن « قيامة مُسبقَة »(٢) . نجد هنا صدى لنصوص بولسية مثل قولسي ٢/١٢ : « بالمعمودية أقمتُم مع المسيح » ، وقولسي ٣/١ : « لقد قمتم مع المسيح ، فاسعوا إلى الأمور التي في العلى » ؛ وأفسس ٢/٦ : « أقامنا (الله) مع المسيح واجلسنا معه في السموات » .

---

(١) Dictionnaire de Spiritualité, f. 66-67 (1978) , c. 640-642.

(٢) هكذا يوحنا الداليائي ، راجع ادناه .

في الحقيقة إن هذا البُعد «الصوفي» لخبرة القيامة لا يستند ، بالنسبة إلى الروحانيات المشرقية ، إلى تلك النصوص البولسية حسبُ ، بل له أيضًا أسس لاهوتية خاصة بالكنيسة السريانية الشرقية . وهو أمر طبيعي إذا أعتبرنا أن الروحانيات هي الطريقة الواقعية التي نعيش بها عقائدنا بدافع الروح القدس ، بحيث يوجد دوما تعامل بين المفاهيم اللاهوتية الخاصة بكل كنيسة وخصوصيات روحانياتها . هكذا فإن الانتباه بخبرة عربون القيامة من الآن يأتي للروحانيات السريانية المشرقية من أسس لاهوتية خاصة بكنيستها قد أضيفت الى الروحانيات الآرامية الأساسية التي ذكرها ميشيل حايك . ومن هذه المفاهيم الخاصة لنذكر لاهوت القيامة عند ثيودوروس المصيصي ، وهو اللاهوتي المتميز للكنيسة المشرقية ، وبعض التيارات الفكرية الخاصة بالمحيط النهراني يُمثلها مكاريوس المزعوم في القرن الرابع وكتاب المراقي (في القرن الرابع أيضًا) ، وكلاهما صوفيا نور القيامة .

المصادر

إن قيامة المسيح ليست ، بالنسبة إلى ثيودوروس المصيصي، الإشارة إلى أن يسوع قد خلصّنا حقاً من خطايانا بموته على الصليب حسب ، بل إنها تشير أيضًا إلى مجيء وضع جديد للبشرية . فإن ثيودوروس يقسم تاريخ الإنسانية ، وتاريخ إنسانية المسيح نفسه بإعتباره النموذج الذي يضم إلى نفسه تاريخ العالم كله ، إلى فترتين . وتتسم الفترة الأولى بـ «قابلية الموت والفساد والتأثر بالأهواء والتغير» . في حين تتسم الفترة الثانية التي إفتتحتها قيامة المسيح ، على عكس ذلك ، بـ «عدم قابلية الموت واللافساد واللاتأثرية بالأهواء واللاتغيرية » . ومصدر هذا النقيض هو في ١ قور ١٥/٥٣ حيث يضاد القديس بولس قابليتي الفساد والموت الحاضرتين بعدم الفساد وبالخلود الذي سنقتبلهما عن طريق اتحادنا بالمسيح المنبعث.

إن هذا المفهوم اللاهوتي هو أحد أسس الروحانيات المشرقية كلها . فإذا كان المسيح ممجداً كليًا الآن ، فإننا نمتلك من الآن أيضًا عربون حياة القيامة والمجد . والمعمودية تجعلنا نولد أساسًا لتلك الحياة ، بولادة جديدة يعتبرها ثيودوروس «عربون الولادة العظيمة المقبلة ، أي ولادة قيامتنا » (الميامر التعليمية ٤ ، ٦ و ٧) . في حين أن الإفخارستيا تنمي فينا هذا العربون كما أن الغذاء ينمي جسد المولود ، ذلك لأن القربان هو ناسوت المسيح المنبعث ، ولأنه ، عن طريق التناول ، يمتزج في حياتنا الإنسانية وينشر فيها سراً حياته الخالدة نفسها . ويضيف ثيودوروس أن هذا الإشتراك الخفي يجب أن يظهر أكثر فأكثر في مجرى حياتنا اليومية بحيث تصبح علامة منظورة للحياة المقبلة التي نقتبل عربونها ، وما سيسمح إزدهار هذا العربون للقيامة هو جهودنا للإقتداء بالمسيح المرتبطة بالصلاة العميقة .

إن أساس الحياة الروحية هي إذن إشتراكنا في الإحتفال بالإفخارستيا التي تُعتبَر قبل كل شيء الإحتفال بقيامة المسيح والإتحاد بناسوته المجد . ومن هنا أهمية طقس قيامة المسيح

في القداس المشرقي . ففيه نستدعي الروح القدس لكي يأتي ويُمجد جسدَ المسيح ودمه . وهذا ما يتحقق سراً عن طريق مزج الجسد والدم ؛ فكان إفتراقهما يعني الموت ، وجمعهما يعني الآن القيامة . وكذلك التناول يتم في جو عيد القيامة ، فإن المسيح المنبعث هو الذي يزورنا ويعطينا جسده الممجد . فلنقرأ هنا هذا النص البديع لثيودوروس :

«(في وقت التناول) علينا أن نتصور في وجداننا ربنا المسيح الذي يقترب ممن يقتبله بكل واحدة من هذه الكسر . وهو يسلّم علينا ويؤكد لنا قيامته ويعطينا عربون الخيرات المقبلة . كلنا إذن نقترب بعذوبة وفرح عظيم ، عن طريق ما إكتمل من تذكارات ورموز وعلامات ، إلى المسيح ربنا كما لو قام الان من بين الأموات . وبقدر وسعنا نضمّه إلينا بعذوبة ، لأننا نراه قد قام من بين الأموات ولأننا نترجى الوصول إلى الإشتراك في القيامة . فهو أيضًا ، كما من قبر ، قام من المذبح المقدس حسب الرمز الذي إكتمل». (الميامر التعليمية ١٦، ص ١٤١ ... ١٤٥) .

ويصرح ثيودوروس أن الايمان هو الذي يؤكد لنا حقيقة ما يشير اليه هذا الطقس . ولكن الأمر يتعلق أيضًا بخبرة روحية يتم فيها ، بالفرح و «العذوبة» ، الإتصال الحي بما يُعرفنا به الايمان . وسنرى كيف أنه ، بالنسبة إلى الروحانيين السريان الشرقيين ، يجري هنا أيضًا إتصال مباشر بشعاع مجد المسيح الحاضر في القربان .

إن المصدر الرئيسي الآخر للروحانيات المشرقية فيما يخص دور القيامة هو مكاريوس المزعوم (أي سمعان النهراني) ، وإحدى خصوصيات تعليمه هي بالذات خبرة مجد المسيح .

فإن مكاريوس يعلم أن الروح القدس الذي أرسله إلينا المسيح بعد قيامته يجعلنا نلمس في الصلاة شيئًا من مجده . والمصدر الكتابي هو هنا ، كما هي الحال من بعده عند المتصوفين المشرقيين المسيحيين ، وبالأخص عند يوحنا الداليائي ، ٢ قور ١٨/٣ و ١٦/٤ :

نحن كلنا بوجوه مكشوفة — نشاهد مجد الرب كما في مرآة
ونتحول إلى تلك الصورة — من مجد إلى مجد

حسب فعل الرب الروح

فإنّ الله الذي قال : — ليشرق من الظلمة نور
هو الذي أشرق في قلوبنا — لإشعاع معرفة مجد الله

الذي هو على وجه المسيح

والآن لنستمع إلى مكاريوس : «عندما تأتي النعمة ... تشاهد النفس بلا إنقطاع وبطهارة

تامة ، وبعينين صافيتين ، مجد النور الحقيقي وشمس العدل الحقيقية التي تشرق في القلب نفسه .. لأنه ، كما أن العين الجسدية ، إن كانت صافية ، ترى الشمس بوضوح وبلا انقطاع ، فكذلك الروح المطهرة تماماً ترى بإستمرار المجد النوري للمسيح . فإنها مع الرب نهاراً وليلاً ... غير أن البشر لا يصلون حالاً إلى تلك الدرجات بل يصلون إليها بعد أتعاب واضطرابات ومعارك كثيرة» . (المقالات الروحانية II ، ١٧ ، ٣-٤) .

غير انه ، كلما طهر الروح القدس قلب الإنسان مزج خبرة مجد المسيح بالتجارب نفسها ، باعتباره يوحده في آن واحد بالمسيح المتألم والمسيح المنبعث ، فلنقرأ هذا النص :

« إن وجه الرب يظهر للنفس بشكلين ، أي مع آثار جراحه وبمجد نوره . فتشاهد النفس الآلام التي قاساها لأجلها وتشاهد أيضًا اللمعان الذي لا يقارن لمجد نوره الإلهي ، وتتحول إلى هذه الصورة من مجد الى مجد حسب فعل الرب الروح . وهكذا تتقدم حسب شكلي وجه المسيح معاً ، حسب شكل الألم وشكل النور المجيد ، وتنسى نوعاً ما طبيعتها الخاصة لأن الله قد إستولى عليها فانصهرت وامتزجت بالانسان السماوي وبالروح القدس ، وهي اصبحت نفسها روحاً! » (المقالات الروحانية III ، ٣ ، ٣) .

خبرة عربون القيامة في الروحانيات المشرقية

إن كتاب المراقي (في القرن الرابع) هو من أقدم الكتب الروحانية المسيحية التي ألفت باللغة الآرامية . وهو يتكلم عن رؤية مجد المسيح ، منذ هذه الحياة ، بطريقة ليست بعد في نطاق العربون ، بل هي من الآن نوع من الدخول الى الخلود ، بحيث ان الفرق القائم بين خبرة مجد المسيح في هذه الحياة وبين هذه الخبرة في السماء ، هو اقل من الفرق القائم بين الذين ذاقوا هذه الخبرة في هذه الحياة والذين لم يذوقوها!

لم يتبع الروحانيون المشرقيون كتاب المراقي إلى هذا الحد ، غير أنهم تأثروا بحماسه لعظمة نعمة الله الظاهرة في خبرة مجد المسيح . ومصدر هذه الخبرة هو بالنسبة لهم مزدوج : فكما هي الحال عند ثيودوروس المصيصي ، تنبثق هذه الخبرة من الافخارستيا ؛ وكما هي الحال عند مكاريوس ، تزدهر بفضل الصلاة الباطنية .

إننا بخصوص خبرة مجد الله في الإفخارستيا ، لا نستطيع أن نُكثر هنا الأمثال ، فسنكتفي بذكر بعض اقوال يوحنا الدالياتي الذي كان يعيش في القرن الثامن في شمال العراق والذي هو ، على ما أظن ، أعظم روحاني مشرقي ، فلنستمع إليه وهو يذكر أقوال « أحد الإخوة» الذي هو في الحقيقة يوحنا نفسه :

« لقد روى لي أحد الإخوة ما يلي بخصوص أسرار جسد ربنا ودمه فقال : عندما انظر إليها على المذبح ، أو عندما أحملها في يديَّ ، تُلغى ماديتُها وأراها شبيهة بنور مجد العظمة» (المقالة ٣)

« ولقد قال لي أخ صادق : كنتُ أستعد في يوم من الأيام للإحتفال بالأسرار الألهية ، بعد أن وضع وستر الخبز والخمر على المذبح المقدس . وعندما بدأت بالإحتفال ونظرت إلى التقادم ، رأيتُ فوقها الكاهن الذي تدّم نفسه لأجل جميع الناس ، وهو في مجد لا يوصف . لقد أذهلتني تماماً هذه الرؤية وإضمحل قلبي في داخلي ، في حين كانت نفسي تتقد بالفرح والحب وكان جسدي كله ملتهباً كما في النار ، وكلاهما مغمورين بالعذوبة ... » (المقالة ٢١) .

« لماذا تقتبل الخبز الأقدس كمن لا يرى فيه الشعاع الآتي من لدن الآب ؟ لماذا تشرب كأس دم مخلصنا كمَن لا يفهم أنه ، باعتباره شرابك ، يمتزج بك بسرّ التناول ؟ ولماذا تتصور الأسرار خارجًا عنك حين يجب أن تراها في داخلك؟ » (المقالة ١٧) .

إن المسيح ، لأنه ممجّد و «مُروحَن» كما يقول القديس بولس (راجع ١ قورنتس ١٥/٤٤-٤٥) ، يستطيع ، عن طريق التناول ، أن يتسلل في نفوسنا وأجسادنا ، ولهذا فإذا إعتدنا على توجيه انتباه نفسنا نحو «قلبنا» سنستطيع أن نحس بشيء من نور «الشمس الحقيقية «في» سماء قلبنا» . فكما يقول يوحنا الدالياثي : «لقد أشرق المسيح في قلوبنا فاستنارت بمجد الله» (الرسالة ٤/٧) ، بحيث أنه «إنما في إنسانهم الباطني يُشاهد البشر المُطهرون حسن ربوبية المسيح» (المقالة ٢٠) ، مثل «نجمة كثيرة الإشراق تشرق في القلب وتظهر في سماء الروح» (المقالة ٢٠) . «فليفرح من رأى ربنا في داخله وإمتزجت نفسه بنوره! » (المقالة ١٤) .

إنها القيامة المُسبقة التي تُمنح للذين يموتون «للعالم» بالمعنى الكتابي للكلمة ، أي لكل ما يعيق حياة الإقتداء بالمسيح : «لقد قاموا مع المسيح مُسبقاً في مجد الآب حسب قول الرسول مفسر الأمور الجديدة ... آه لهؤلاء الموتى في المسيح الذين عاشوا وهم يذوقون الحياة التي لا تعرف الموت! » (الرسالة ٦/٤٧)، «هذه هي النفوس التي ماتت مع المسيح ليقيمها ابو الكل بمشاهدته ! » (المقالة ٨) .

هل يخصنا كل ذلك ؟ فهل يجب أن يبقى هذا التعليم القديم والرائحة الروحية التي تفوح منه إلى الآن مدفونين في مكتبة متحف ؟ إننا نحن أيضًا مدعوون إلى أن نختبر فجر نهار القيامة إذا سلمنا حقا ذواتنا للمسيح ، كل واحد حسب وضعه الخاص ، وإذا اعتدنا على التوجه مراراً نحو معبد قلبنا في الصلاة الصامتة ، ونحن نؤمن مع يوسف حزايا (روحاني مشرقي عراقي آخر في القرن الثامن) «ان باب قلبنا وباب السماء باب واحد» .